

الروضة الأولى

التوبة

ما أحلي الرجوع إليه

يقول ربك عز وجل :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ

وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: 104]

الروضة الأولى

ويعول حبيبك ﷺ :

" من تاب إلي الله قبل أن يغرق قبل الله منه "

صحح رواه أحمد والترمذي

وعن ابن عباس رضي الله عنهما :

" ما دمعت عين إلا بفضل الله ، وما دمعت عين امرئ

حتى يمسح الملك قلبه "

تنبيه المغتربين الإمام السمرقندي

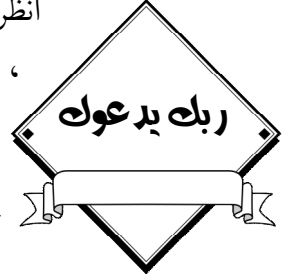
﴿ من هنا نبدأ ﴾

أخي وحيبي من هنا نبدأ ، من دوحة القلوب وبستان الأرواح ، من روضة التوبة ، والسبب - وأظنه لا يخفي على مثلك - أن التوبة ضرورة للعبد ولازمة للسالكين طريق الرب في أول الطريق وفي أوسطه وفي نهايته ، فإذا أفقت من غفلتك وانتبهت من غفوتك ، ويممت وجهك شطر مولاك فإن التوبة هي زادك في أول الطريق وآخره وما بينهما ، ستحملها معك نورا في دربك ورحيقا مختوما في قلبك وعبيراً نديا يرطب جفاف حياتك حتي تصل إلي ما تريد ، فتقر عينك ، ويستريح فؤادك في منازلك وجنانك العلي ، يقول شيخنا ابن القيم رحمه الله تعالى مبينا منزلة التوبة ومكانتها وفضلها : (ومنزلة التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات ، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به ، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته ، وحاجته إليها في النهاية ضرورية ، كما أن حاجته إليها في النهاية كذلك) (1) .

اللهم زد هذا الشيخ - وكل مشايخنا - تكريماً وتعظيماً ، هل قرأت أخي كلامه ؟ هل أبصرت حروفه ؟ إنها بنات النور وشقائق الروح كأنه يقول لي ولك ولكل سالك إلى ربه مستقيم علي دربه : إننا حين ننزل روضة التوبة ونطرق بابها ونحل بساحتها ، فإننا ننزل بساحة ظلها ممدود ، وماؤها مسكوب ، وأكلها دائم ، وفاكهتها هي بنت الخلود وصفها خالقها بقوله : ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: 33] فدع عنك أخي الحبيب هذه المقطوعة الممنوعة بنت العدم ، وعلق أمالك بما يبقى فإن قيمة المرء ما يطلبه ، فمن النفس بقاء لا ينضب ، وخضرة لا تتبدل ، وملك لا ينقطع ونعيم لا ينفد ، إن روضة التوبة مفتاح الجنة وبابها ، فمن عجز اليوم عن الوصول إليها وطرق بابها والإلحاح في الطرق حتي يفتح له فيدخل سيكون عن الجنة أعجز وعن بابها أبعد ، وعن رياضها وأنهارها وقصورها وحورها وجوار ربها أبعد وأبعد ، فهلم أخي الحبيب ، ابدأ الآن

معي ، وافتح أقفال النفس وأزل غشاوة العين ، وحطم قيود الفؤاد وارفع عن إذنك أوقارها لتري وتبصر وتسمع إلى المولي يناديك لتدخل .

انظر هناك أخي الحبيب ، إن بين يديك شجرة طلع تدلت أوراقها خضراء تسر الناظر ، وتسعد خاطر ، وعلي ورقة منها بخت واضح ، وقلم عبقرى ساحر ، مكتوب هذه الآية : ﴿ وَتُوبُوا



إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿ [النور: 31] يالله ما أروع من مشهد ، وما أجملها من آية ، انظر إليها تفر

عينك ، وتدبرها يتألق قلبك ، وهذه بعض معانيها فأعزني سمعك الآن وليس غدا :

أولاً : إن ربي وربك أخي - وهو الحكيم - خاطب بهذه الآية قوما هم خير من احتضنت الأرض أقدامهم ، ولألمس الثرى نعالهم بعد الأنبياء ، اصطفاهم الله تعالى لنفسه ورباهم علي عينه ، وترقوا تحت سمعه وبصره إعدادا وترية ، حتي نضج الزرع واستوي علي سوقه ، وبلغ القوم في الربانية آفاقا لا يطار لها علي جناح ولا يسعى إليها علي قدم ، ومع كل ذلك أخي يطلب ربك منهم التوبة ، ويعلق عليها فلاحهم . ويربط بها نجاحهم وفوزهم ، ويا له من معني لطيف وسر دقيق ، يأسر اللب ويسبي القلب مع شيء من التدبر وقليل من التفكير ، بمعني أنه إذا كان ربنا جل وعلا يطلب من هذه الكواكب المضيئة في سماء التقى أن تتوب لتفلح وأن تعود إليه لتفوز وتنجح ، فنحن أخي بالتوبة أولى ، وبالإنابة أحق ، لما بيننا وبينهم في الإيثار من مسافات جعلتهم في السابقين . وجعلتنا علي الأثر لا ندري أن نلحق بهم أم نتعثر .

ثانياً : أما المعني الثاني أيها الحبيب ففي قوله تعالى : " وتوبوا " أتدري أخي أنه أمر ؟ إن مولاك يطلب منك أن تهجر إلي رحابه . وأن تفر إلي جنبه ، وأن تحمل عصاك في يدك وتبدأ سفرك نحوه في طريق لا تقطع بالأقدام وإنما تقطع بالقلوب ، فهل تستجيب لمولاك فهو أرفق بك من نفسك ، وأبر بك من أب يغذوك وأم ترعاك ؟ أيليق بك أخي أن تسمع مولاك يدعوك ثم تعرض عنه ؟ لا والله . إن الذي

يفعل ذلك هو غيرك ، أما أنت فلا ثم لا ثم لا ، إن ما يدعوك إليه مولاك هو الخير الذي لا خير وراءه ، وتأمل لو أن طبيبا وصف لك دواء أخي الحبيب : هل تتردد في أخذه ؟ ما أظنك تفعل ، ولا يفعلها أحد ، فهل أمر ربك وولي نعمك ومالك أمرك أهون عندك من أمر الطبيب الذي يصيب ويخطيء ؟ يا لله عذرا إني أربأ بك أخي وأنت سليل الربانيين وحفيد المقرين ، من آدم ونوح إلي إبراهيم وموسي حتي عيسي ومحمد صلوات ربي عليهم ، أن تسمع وتعرض فاستجب لله ورسوله إذا دعاك لما فيه حياتك وفلاحك ، وأعرض عن الشيطان وحزبه وذريته فإنه ﴿يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:6]

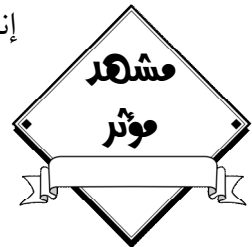
ثالثاً : أما المعني الثالث ففي قوله تعالى : " جميعاً " إن التوبة أخي هي سلم الفلاح ومعراج الرقي ، ولن تفلح الأمة إلا بعودة جماعية إلى الله تعالى ، فلا يصح أخي ان تتوب أنت وتعود الي ربك في هجرة مباركة ، وأظل أنا في الغي سادر ، وعن الحضرة غائب ، وعن الطريق محجوب ومردود ، ولا يصح أخي أن أتوب أنا ويظل أخ لي خارج السرب مع شيطانه يغرد ، وفي ماخور الهوى يرقص وعلي أبواب اللهو وأندية الهوى يتقلب ويلعب ، لا ثم لا ، إن الكل مدعو الي التوبة الآن وليس غدا ، إن أرادات الأمة لنفسها نهضة ، ولدينها رفعة ، ولرايتها عزة ولنبيها نصرة ، ولنفسها علوا بالحق وفلاحا .

﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:31] إنها معان لطيفة أخي ، وأسرار بديعة تتجلى من خلف الحروف وتضيء من وراء الكلمات ولن تجددها إلا هنا في روضة التوبة ، فنقل معي الخطو ، بعقل متفتح ، وقلب متيقظ ، وإياك والغفلة فإنها عقبة في الطريق ، وعثرة علي الدرب فانطلق .

إنه مشهد المهاجرين إلى الله ، فهل قرأت أخي قوله تعالى علي

لسان النبي الصالح :- ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت:26] ؟

والله إنه لقول يأخذ بمجامع القلب لو كان ينبض ، ويحيط بأقطار النفس إذا كانت بها حياة ، وإن أروع مشهد يمكن أن



تقع العين عليه وتدركه النفس ، هو مشهد إنسان يفر إلى الله تعالى من جحيم الهوي وحصار الشيطان وقيود النفس ، إنسان يهرب من الضلالة إلى الهدى ، ومن الحيرة والشك إلى اليقين والرشد ، ومن الظلمات والتيه إلى أنوار فجر ذي ثغر باسم وأمل قادم ، إن مشهد التائب أخي يبعث في نفس الإنسان نشوة غامرة تستعصي علي الفهم ، إذا حاول المرء فهمها ، وعلى الوصف حين يحاول الإنسان وصفها ، وأظنك أخي قد رأيت أو سمعت أو قرأت عن عائد إلى ربه بعد طول غياب ، ومنيب إلى سيده بعد طول قطعيه ، ومهاجر إلى مولاه بعد أن استبد به الهم وأضناه ، فهل ترك ذلك المشهد في نفسك أثرا ؟ وهل طبع في قلبك صورة ؟ إن لهذا المشهد جمالا لا يقاوم فما هو سر هذا السحر الذي يحيط به وبرؤيته ؟ تعال أخي نضع القلم ، وندع شيخنا العلامة "البوطي" يرسم لنا بريشة فنان ، ويصور لنا بمداد من دم قلبه سر هذا المشهد وسحره ، ليخلق بنا في آفاق من النور وسماوات من الروعة قلما تدرك أو تطال ، يقول الشيخ أطال الله بقاءه ونفع به : (إنها أمران يبعث كل منهما في القلب نشوة غامرة تستعصي علي الترجمة والوصف :

أولهما : هذه الملاحقة الربانية للشاردين والضالين أن يعودوا إلى كنفه وأن يمثلوا أمام مائدة فضله وإكرامه .

الثاني : تلك الاستجابة التي تذكر بعودة الطفل آمنا مغتبطا إلى صدر أمه .

وإنك لتنظر فتجد علي وجوه هؤلاء العائدين فرق مابين أمسهم الغابر ، إذ كانت تغشاهم ظلل داكنة من شقاء الضلال والابتعاد عن حمي المولي عز وجل ، ويومهم الجديد إذ تعلق وجوههم إشراقة التوبة وسكينة الهداية وبهجة معرفة الله والتعرف إليه ⁽¹⁾ يا لله ! اقرأ أخي وتأمل ، وأطلق العنان لتلك المعاني الربانية لتصل إلى قلب قلبك ، وعش معها بروحك قبل أن تحرك بها لسانك ، لتنعم وتنعم بذات الإحساس الذي يجده التائب حين يعود ، والمهاجر حين يصل ، والمسافر يرجع فيقر عينا بالإياب ، إن روعة هذا المشهد أخي لا تقف عند معانيه الظاهرة ، ولا يليق بك - وأنت من أنت -

(1) شخصيات استوقفتني : ص 20 ط دار الفكر .

أن تقف عند الصورة دون الحقيقة ، وإنما الذي يليق بك أن تنظر في التوبة إلي أمرين
اثنين :

الأول : لطف الله سبحانه الذي يصطفي التائبين ويختارهم لجواره ويضمهم إلي حضرته ،
وياله من معني ، فربك أخي هو اللطيف ، وحين يمس لطفه هؤلاء الشاردين
تبدل أحوالهم ، وتنقلب حياتهم ، وتتغير بوصلة قلوبهم في اتجاه آخر اتجاه
اللطيف الذي دعاهم فأجابوا ، وناداهم فاستجابوا ، ثم تاب عليهم أيها
الحبيب... فتابوا .

الثاني : ثم انظر في التوبة كذلك إلي تلك العودة المفعمة بمعاني اللقاء بعد الغياب ،
والقرب بعد البعاد ، والود بعد الجفاء والصد ، وتأمل حال طفل أعاده إلي
صدر أمه بعد أن أتبعه البعد وأضناه الهجر ، هذا هو حال الربانيين حين يتوب
عليهم مولاهم ، فيطمئنون بعد قلق ، ويأنسون بعد وحشة ، ويسكنون بعد
تشتت واغتراب .

ولن يكتمل المشهد أخي وتبدو روعته إلا بمثال يشرح لنا :

كيف عاد إلي ربه ؟ وما السبب ؟ وكيف لحق بقوافل
المهاجرين إلي رب العالمين ، وألقي وراءه جبلا من
المعاصي ، وأكواما من الخطايا . وعمرنا من اللهو
واللعب ؟ ليأنس بعدها بالروح والريحان ، والنور



والفرقان ، إن صاحبنا أخي ومثالنا الذي أريد ، هو الإمام الرباني الفضيل بن
عياض ، أمام عصره ووحيد دهره ، شهد بذلك القاضي والداني ، حتي قال فيه
محمد بن سعد : كان ثقة فاضلا نبیلا عابدا ورعا كثير الحديث ⁽¹⁾ ، وشهد له الإمام
الزاهد الورع عبد الله بن المبارك - ومن شهد له ابن المبارك فحسبه - حيث يقول
فيه : ما بقي علي ظهر الأرض عندی أفضل من الفضيل بن عياض ⁽²⁾ ، وقال نصر
بن مغيرة البخاري : سمعت إبراهيم بن شماس يقول : رأيت أفضقه الناس وأورع

(1) طبقات ابن سعد ج6 ص500 دار صادر .

(2) سير أعلام النبلاء . ج8 ص424 الإمام الذهبي ط الرسالة .

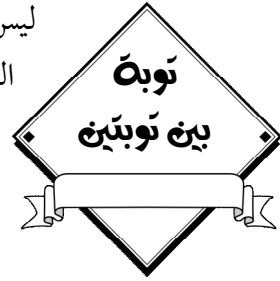
الناس وأحفظ الناس : وكيعا والفضيل وابن المبارك ⁽¹⁾، هل رأيت أخي كيف شهد أولئك الأعلام للفضيل ؟ ولكن المفاجأة التي ستدهشك هي أن ذلك الرجل الذي شهد له الجميع بالإمامة في الورع والسبق في الصلاح والزهد، قضي شطر شبابه لصا يقطع الطريق ويستلب الناس أموالهم ، لينفقها علي متعه وأهوائه ، ويبددها فيما تمليه عليه ملاذه وشهواته ، وفي غمرة تلك الحياة الشاردة والتائهة ، لقي الفضيل فتاة فعلق بها قلبه ، وهاج من عواطفه نحوها ما صرفه عن المال وجمعه ، وعن الغني وسحره ، وأخذ العشق في نفسه نار البغي وحرارة البطش ، فلم يعد له وقت يتسع لأكثر من التفكير فيها والتخطيط للقائها والسكون إليها ، وأنسته جذوة الحب التي اشتعلت في نفسه ظلمة ليلاليه ، وأقصت شيئا فشيئا قسوة قلبه ورعونة نفسه ، وأسدل الحب حجابا كثيفا بينه وبين ما غبر من أيامه ولياليه ، وذات ليله - ويا لها من ليلة - شرع يفكر كيف يغزو بيت محبوبته ، ويقتحم الجدران التي تفصل بينها وبينه في جنح الليل دون أن يهيج أحدا أو يثير ريبة ، ولما وقف بجوار البيت لم يعدم شيئا يتعلق به وارتقى الجدار ، وقبل أن يهوى ساقطا في الدار ، وقف يلقي السمع إلي صوت هنا أو هناك ، بحثا عن الأمن في مغامرته والسلامة في مخاطرته ، بينما هو كذلك ، إذ سمع قارئا في جوف الليل يرتل قول مولانا جل وعلا : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد:16] وسأترك قلمي ثانية أخي الحبيب وأدع الأستاذ البوطي يصف لك برقة لفظه وربانية نفسه ومداد قلبه ما حدث للفضيل في تلك اللحظات الفاصلة من حياته ، يقول الشيخ والله دره : (كان قلب الفضيل قد تحرر في تلك الساعة من رعونات نفسه ، وتساقطت منه الأغشية التي غلفته بالقسوة تحت تاثير الحب الذي سرى في أنحائه ، فما أن طرقت سمعه هذه الكلمات الربانية الفياضة بالحب والعتب الرقيق ، حتى سرت منها شعلة إلي قلبه الذي صقله الحب ، وهذب الوجد

(1) نفس المصدر السابق .

فأضاء مصباحه المنطفئ ، وأوقد ناره الخامدة ، وإذا هو يصيح بصوت مجلجل اخترق سكون الليل من حوله ، بلي يارب لقد آن ، وتحول في اللحظة ذاتها ، فسقط في المكان الذي تسلق فيه ، وأسرع كالملدوغ لا يلوى على شيء ، ومضى يصيح مرددا: بلي يا رب لقد آن (1) .

الله أكبر ، في تلك الليلة أخي الحبيب ، وفي هزيعها المتأخر ، تم عقد الصلح بين عبد ومولاه ، وفي ظلمات تلك الساعة طوى الفضيل تاريخا مظلماً ، وصفحات سوداء ، وولد على أثرها فضيل جديد ، عابد زاهد تقى ورع اسمه : فضيل بن عياض ، فقرأ أخي وأعد القراءة ، فإن مشهد التوبة هذا يفيض رقة ، ويقطر عذوبة ، ويملاً جوانب النفس أملاً مشرقاً في غد نقى ، ومستقبل ندي ، ينضم فيه التائبون إلى الركب ويعود الشاردون إلى الدرب ، فيلحقون بالقافلة المؤمنة التي تمضي في طريقها تردد أهاليج النصر ، وتغرد بتراتيل الحب ، حتي تتم الملحمة ويكتمل البناء ، ولا تسأل أخي متي فقد سألها قوم من قبلك فأتاهم الرد الإلهي عذبا رقيقاً ندياً ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ﴾ [الإسراء:51]

ليس في الوجود من حولك أخي أجمل من هذا المشهد : مشهد العودة ، مشهد التوبة ، مشهد الإنابة والرجوع ، الطفل الغائب إلى صدر أمه ، والعبد الشارد إلى رحاب ربه . إن توبة فضيل أخي التي قصصت عليك خبرها ، مثال واضح يبين لطف السيد بعبد حين يريد به الخير ، وتسبق له



الحسنى ، إن الرب يتفضل بداية علي العبد بالتوبة فيتوب ، فإذا تاب أدركته من مولاه توبة أخرى ، فنصير أمام توبة من العبد بين توبتين من الرب ، وسأدع ابن القيم رحمه الله تعالى يشرح لك ذلك ، فهو الذي يملك قلماً ربانياً يفصل به مادي من المعاني وما خفى من الأسرار يقول رحمه الله : (وتوبه العبد إلى الله مخوفة بتوبة من الله قبلها وتوبة منه بعدها ، فتوبته بين توبتين من ربه سابقة ولاحقة . فإنه تاب عليه أولاً إذنا وتوفيقاً

(1) شخصيات استوقفتني ص25 مصدر سابق .

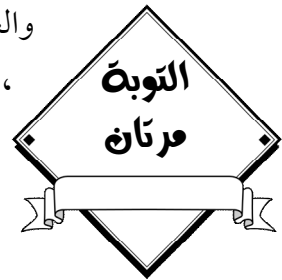
وإلهاما ، فتاب العبد ، فتاب الله عليه ثانيا قبولاً وإثابة . قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١١٧ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: 117، 118]

فاخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم وأنها هي التي جعلتهم تائبين ، فكانت سببا مقنضيا لتوبتهم . فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب عليهم (1) .

سبحانك ربى ما أعظم فضلك ، سبحانك ربى ما أوسع حلمك ، سبحانك ربى ما أقرب فرجك ، أرايت أخي كيف يكون لطف الله تعالى بعبده ؟ إن توبة العبد سبقتها توبة ربه عليه وهى التى سماها ابن القيم رحمة ربى عليه : توبة التوفيق والإلهام والإذن ، وكان أحدا لن يوفق إلى العودة للحضرة الإلهية إلا بإذن منه سبحانه ، الله أكبر! فإذا تاب العبد هذه التوبة لحقتها توبة من الله عليه سماها الإمام ابن القيم : توبة القبول والإثابة ، أى قبول التوبة والجزاء عليها بأجمل ما يكون الثواب.

بكل هذا ندرك أن توبة الإنسان بين توبتين من الرحمن ، فتأمل أخى فضل ربك عليك ، وسله أن يلهمك التوبة أولا والقبول وحسن الثواب آخرا إن ربى رحيم ودود .

والعبد يتوب إلى ربه مرتين : مرة في الدنيا عندما يفيق من غفلة ، ويصحو من سكرة ، وينهض من عشرة ، وتفتح مدارك نفسه لدعوة الحق وكلمة التقوى ، هذه مرة ، أما الأخرى فعندما تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، ويقوم الناس لرب العالمين ، وهذه عودة للجزاء والمكافأة ، فهما

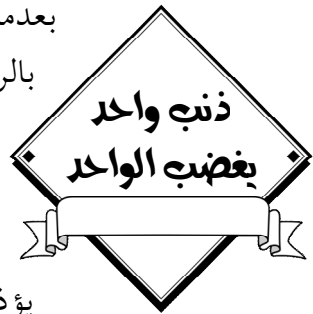


إذن توبتان فطن شيخ الإسلام ابن القيم إليهما ، وراح يحدث عنهما حديثا فيه عبق الروح وعبير الريحان ونفحات اليقين ، يقول رحمه الله : (والتوبة لها مبدأ ومنتهى ، فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم الذى نصبه لعباده ، موصلا إلى

رضوانه ، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:153] وقوله تعالى : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج:24] ونهايتها الرجوع إلى الله تعالى في المعاد وسلوك صراطه الذي نصبه موصلا إلى جنته فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة . رجع إليه في المعاد بالثواب ، وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان:71] قال الإمام البغوي وغيره : يتوب إلى الله متابا : يعود إليه بعد الموت متابا حسنا يفضل عليه غيره ، فالتوبة الأولى وهي قوله تعالى ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ رجوع عن الشرك ، والثانية رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة ⁽¹⁾ .

أرأيت أخي ؟ إن نور اليقين يقطر علي القلوب كالندي والبرد من فضاء تلك الكلمات ، وإن القلب ليتنفّض لها كما يتنفّض العصفور بلله القطر ، فاعلم أخي أنها طريق واحدة ، أولها هنا وآخرها في الجنة ، فاعقلها أخي وافتح لها عقلك وقلبك ، فإن كنوز القوم لا ينالها إلا قلب متيقظ ، وعقل متحفز ، وأنت صاحب ذلك ، بعت الله نفسك فربح والله بيعك ، ربح بيعك .

بعدما سمعت أخي ورأيت ، ألا تحدثك نفسك أن تلحق بالركب ، وأن تنضم إلي قوافل المهاجرين إلى رب العالمين ؟ ألم تنبعث همتك شيئا لتسرع في أثر القوم قبل أن يحال بينك وبينهم بموت عاجل أو مرض نازل أو فقر شاغل ؟ لقد آن لك أخي أن تدرك أن الذنب لا يؤذيك وحدك ، وأن شؤم المعصية لا يرتد فقط إلي نحرك ،



وأن عاقبة الإثم تلحق بولدك وأهلك وتؤثر علي متجمعك وأمتك ، بل إن نصرا من الله قريبا ومقدرا قد يتأخر بذنبك ، فتكون قد خنت مجاهدا يحمل الله سيفه ، وروحه علي كفه ، يغلب مرة ويغلب مرة ، يستبطيء النصر ويسأل : لماذا تأخر ؟ وأنت بذنبك السبب ولا تكاد تشعر ، فدعني أوجه إليك هذا السؤال : ألا تخاف

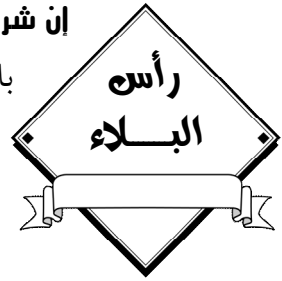
علي نفسك ؟ ألا تخشي عاقبة أمرك ؟ إن ذنبا واحدا تستهين به ولا تلقي له بالا قد يعرضك لما لا تحب ، ويحمل إليك أنباء تسوؤك ولا تسرك وأشياء تضرك ، وكنت أنت في غني عنها وسلامة منها ، فإياك - بعد اليوم - أن تستهين بذنوب ، فإن إبليس إنما أهبط من منزل العز الذي كان يسكنه ، لأنه ترك سجدة واحدة أمر بها ، فتأمل هذا وتذكر كم سجدة لله تركتها ، وآبوك آدم أخرج من دار القرار ومنازل الأبرار بلقمة واحدة نهاه ربه عنها فما صبر عليها ، فتأمل هذا وتذكر : كم لقمة من حرام أكلتها وفي فمك ألقيتها . وملأت جوفك بالسحت وقد نهاك عنه مولاك ، والقاتل أخي الحبيب ، حجب عن الجنة بملىء كف من دم وأنت تقتل نفسك في اليوم مائة مرة حين توردها المهالك ، وتركب بها المعاصي ، وتقتل غيرك بلدغ اللسان وسيف البهتان وسهام العيون وبطش اليد وسطوة الرجل ، فقل لي بربك : ألا تخشي أن تحجب كما حجب هذا القاتل عن دار الخلود وجنات النعيم ؟ وهذا الزاني - حفظت أخي - قتله ربه شر قتله لإيلاج قدر أنملة فيما لا يحل له ، فتعفف أخي ، واحجر اليوم علي جوارحك وأنت لها مالك وعليها حاكم ، قبل أن تتحلل من سلطانك ، فننطق رغما عنك وتقيم الحجة عليك ، قائلة : " أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء " في موقف تقوم فيه وحيدا ، وتبدو فيه ضعيفا ، أخي أيها المقيم علي الذنب ، المصر علي المعصية ، لقد أمر ربك بإيساع الظهر سياطا بكلمة قذف أو قطرات من مسكر ، وأنت سكران عمرك بخمر الهوي ، وشراب الشهوة ، فمتي تفيق ؟ ألا تدري أخي الحبيب أن ربك تعالي - وهو الحكيم - قد قطع يد السارق فيما يساوي ثلاثة دراهم ؟ هانت بالحرام يده فقطعت فيما لا قيمة له ، وأنت تقلب يدك ذات اليمين وذات الشمال ولا تبالي ؟ عجبا لك أخي ثم عجبا لك ، أما آن لقلبك أن يصحو من غفلته ، ولعقلك أن يفيق من سكرته ، ولهمتك أن تحلق بعيد عن الدنيا والدنيا ؟ أخي استحلفك بربك حرصا عليك وحبا لك وشفقة علي مصيرك ، قلها الآن قبل أن تحاول فتقشل ، وقبل أن تطلب فلا تجد قل : أستغفر الله .

أستغفر الله . أستغفر الله .

إخى الحبيب ، إن الذي طرد إبليس من الجنة في سجدة تركها ، وأخرج آدم من جواره بلقمة أكلها ، وحجب القاتل عن الجنة في كف دم ، وقتل الزاني شر قتلة بإيلاج قدر أنملة فيما لا يحل له ، وأوسع الظهر جلدا بكلمة قذف وقطع يدا في ثلاثة دراهم ، فلا تأمن أن يحبسك في النار بمعصية واحدة ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس:15]

إن شر داء يطاب به المرء إخى هو : الغفلة ، فالغفلة داء يحل

بالقلب فيقعد به عن كل خير ، ويقبض علي النفس فلا يدع لها همة ، ويعمى البصر فلا يعرف معروفا ، ويطمس البصائر فيعميها عن الحق ، وينزل كالوقر على الأسماع فلا يصل إليها من ألحان الإيمان صوت يوقظ القلب من غفلته



ويبعث النفس من مراقدها ، وإجمالا أخى الحبيب : لا خير في الغفلة ولا فلاح لغافل ، ولهذا تقدم إليك إمام الواعظين وشمس أرباب القلوب شيخ الإسلام ابن الجوزي ونادي عليك بصوت ملؤه الحب ورحيقه الود ، وعبيره الإخلاص ، لتعلم أن الأمر جد ، وأن السفر بعيد ، وأن الزاد قليل ، وأن المصير إما جنة وإما نار . وأن المقام الدائم إما مع الأبرار وإما مع الفجار ، فاسمع إليه يقول لى ولك ويهتف بى وبك : (يا أعجمى الفهم متى تفهم ؟ يا فرحانا بلذة عقابها جهنم ، ستدرى متى تبكى ومتى تندم ، إذا جثا الخليل وتزلزل ابن مريم ، يا عاشق الدنيا كم مات بحبها مقيم ، ما للفلاح علامة والله أعلم ، غاب الهدهد عن سليمان ساعة فتوعده ، فيا غائبا عنا طول عمره ، أما تحذر غضبنا ؟ خالف موسى الخضر ثلاث مراحل فحل وصل العقد : "هذا فراق بيني وبينك" (1) .

لقد والله صدقك القول ، وأخلص لك النصيح ، فدعني أنا أيضا أسأل نفسي و أسألك - على قاعدة : فلينصح العصاة بعضهم بعضا - إلى متى نحن في غفلة و الموت يحصد البرية حصدا ؟ سبحان الله ! إنها الدعاوى الكاذبة حين يفضحها الصدق ، والأقوال المزخرفة حين يهتك سترها العمل السيء، ندعى نحن الاستعداد للموت

ونلبس لبوس الزاهدين و نحن أحرص الناس على حياة، ونزعم أننا أبناء الآخرة ، و قلوبنا ترتع في الدنيا كالوحوش في البرية، و ندعى أننا نحب الله و رسوله و حب العاجلة لم يدع في القلب مجالا لغيرها وهذا كله جعل شقيقا البلخي يقول و كأنه ينظر إلى قلوبنا، و يكشف بأنوار بصيرته أستار الزيف التي تحيط بها و يقول : (الناس يقولون ثلاثة أقوال و قد خالفوها بأفعالهم، يقولون : نحن عبيد الله و هم يعملون عمل الأحرار و هذا خلاف قولهم، و يقولون : إن الله كفيل بأرزاقنا و لا تطمئن قلوبهم إلا بالدنيا و جمع حطامها، و هذا أيضا خلاف قولهم، و يقولون : لا بد لنا من الموت و هم يعملون أعمال من لا يموت . و هذا أيضا خلاف قولهم) (1) .

أتدري أخي الحبيب لماذا تخالف أفعالنا الأقوال ؟ إنها الغفلة أخي ، الغفلة التي تجعل أحدنا يقول بلسانه : اللهم إني عبدك وأفعاله ليست أفعال العبيد ولو كان عبدا لله حقا لألزمته العبودية صراطها ، ونسجت حوله خيوطها فاستقام عليها قولا وعملا ، ظاهرا وباطنا .

إنها الغفلة أخي ، الغفلة التي جعلت أحدنا يقول بلسانه : إن الرزق بيد الله ، ولم ينخ مطايه بساحة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:58]، فراح يرتع في طلبها كوحش في فلاة ، لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال إلا إذا أمسك بتلابيبها وقبض علي حطامها ، وعض بنواجذه علي زينتها وزخرفها ، ولو كنا نؤمن حقا أن الرزق بيد الله ، لاطمأنت قلوبنا واستراحت نفوسنا في ظلال ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود:6] .

نعم أخي إنها الغفلة التي تجعل أحدنا يقول بلسانه : لا بد من الموت ، ولم يطب له المقام ساعة في واحة ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:64] .

إننا أخي ندعي حب الله وحب رسوله وحب الصالحين من عباده ، ولكن حب ليلي وسعدي ولبني قد ملأ نفوسنا وشغل الطريق إلى قلوبنا ، فإلي الله تعالى نشكو عذب

حديثنا وسوء فعالنا ، إننا لو كنا ندرك حقا ونؤمن صدقا أنه لا بد من الموت لاستقام حالنا ، ولكنها الغفلة أخي فمتي نفيق ؟

إن أهل النار أخي يصرخون ، ألم ينته إليك صراخهم ؟ ويستغيثون ، أتدري لماذا يستغيثون ؟ لن أجيبك ، فأنا مثلك ، أشكو ما تشكو ، وأعاني ما تعاني ، ولكن سادع رجلا من الربانيين يجيبك ، فهو أهل ذلك ، حيث صفت روحه وسمت نفسه ، وانقش غبار الغفلة ودخان الهوي عن قلبه فراح يحدث عن حقائق الأشياء كأنها رأي عين ، إنه الإمام ابن الجوزي



فاسمع ما يقول : " إن أكثر استغاثة أهل النار من (سوف) كانوا يقدمون علي المعصية ، ويؤخرون التوبة ، ويقولون : سوف نتوب ، فاختطفهم الموت علي شر حالة ، فألقوا في نار الجحيم " (1) . يا الله ! سوف نتوب ، وآه من سوف ، فتأمل أخي قول هذا العبد الصالح : فاختطفهم الموت علي شر حالة ، واستعذ بالله من الغفلة ، فهي التي ضربت علي آذانهم وطبقت علي قلوبهم ، فباتوا في غيهم ، وأصبحوا علي بغيهم ، مقيمين علي المعصية حتي حتي ماذا ؟ حتي جاءهم الموت بغتة وهم علي ذلك ، فكانت الخيبة - نعوذ بالله منها - وكان الهلاك والسبب أخي كما تري : الغفلة ، ولأجل ذلك كانت التوبة من الغفلة هي أعلي طبقات التوبة ، هكذا جعلها الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالي فقال يشرح لي ولك طبقات التوبة : **والتائبون علي ثلاث طبقات :**

فأدناهم : التائبون من الكفر .

وأوسطهم : التائبون من المعصية .

وأعلاهم : التائبون من الغفلة (2) .

إن الغفلة أخي تغلف القلب فلا يكاد يعي أو يذكر ، وتجعل علي العين غشاوة فلا تكاد تري أو تبصر ، وتضرب علي الأذان وقرا فأنى لها أن تسمع ؟ وهذه الحال - أعيدك بالله منها - هي حال أهل النار ، فتأمل قول ربك جل وعلا يصفهم لك لتفر

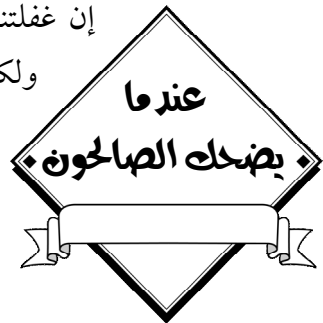
(1) التذكرة في الوعظ . ص 108 دار ابن خلدون .

(2) نفس المصدر السابق .

منهم ومن أوصافهم فرارك من مجذوم ، وتهرب من خيالهم هروبك من أسد قاتل ووحش كاسر يقول مولاك في وصف أهل النار : ﴿ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: 179] فتأمل قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ واستمع إلي سيد رحمه الله تعالى في ظلاله وهو يشرحها لك ، فيمطر أذنك زهرا وعطرا ، وقلبك روحا وريحانا وأنصت إليه يقول : (فقد زدوا بالقلب الواعي والعين المبصرة ، والأذن الملتقطة ، فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا ، إذا مروا بالحياة غافلين ، لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ، ولا تلتقط أعينهم مشاهدتها ودلالاتها ، ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإحياءاتها ، فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلي استعدادتها الفطرية الهادية ، ثم يكون من ذرء جهنم يجري بهم قدر الله إليها وفق مشيئته (1) .

أخي الحبيب . إن العافية في الذكر والطاعة ، والبلاء كل البلاء في اللهو والغفلة ، والشفاء في الإنابة والتوبة ، فانفض غبار الغفلة ، واطرح عنك هموم العيش ، وفارق النفس وشواغلها ، وخذ لربك خطوة ، وناده نداء الكريم ، وجاوبه جواب الكليم : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ [طه: 84] وكن علي ثقة أخي بأن مولاك كريم ، ولن تقترب منه شبرا حتي يقترب منك باعا ، ولن تقطع باتجاهه باعا ، إلا ضاعف إليك السعي فتقرب منك ذراعا ، ولن تطأ قدمك طريق التوبة إلا وجدته عز وجل يهرول نحوك ، فماذا تنتظر ؟.

إن غفلتنا أخي وآه من غفلتنا ، جعلت الصالحين يضحكون ، ولكنه والله ضحكك بطعم البكاء ، سمعناه من حكيم القوم أبي الدرداء رضي الله وهو في بستان التوبة يجلس ، فاقتربت منه وقلت : يا صاحب رسول الله سمعتك تضحك ، ورأيتك مطرق الرأس مشفقا قلنا ، فماذا أضحكك ؟ فرد بصوت ملائكي كأنه من رياض الجنة



أتي وأجاب : أضحكني ثلاث : مؤمل دينا والموت يطلبه ، وغافل ليس مغفولا عنه ، وضاحك ملئ فيه لا يدري أرضي الله عنه أم سخط ، ألقاها الحكيم هكذا في وجوهنا وتركنا في دهشتنا ثم انصرف ، فيارب ثبت قلوب عبادك أن تنهد ، واربط عليها حتي لا تنفطر ، إن أبا الدرداء يضحك ، ولكنه - كما أسلفت - ضحك من اختلط الدمع بعينه مع الدهشة في عقله ، فأثمرا معا حسرة في نفسه ، ضحك من يرى إنسانا بخفة الفراشة وحرص الذئب يلهث ويجري ، وهو لا يدري أن الموت بنفس الحرص -أو أشد - يستقبله علي الطريق ، ضحك من يري إنسانا أثقلته حاجاته ، وأسكرته رغباته ، فنسي أن ذنبه مرصود ، وأن عمره محدود ، وربّه قيوم لا تأخذه سنه ولا نوم ، ضحك من يرى إنسانا لا هيا يضحك حتي يستلقي علي قفاه ، والمسكين لا يدري هل رضي عنه ربّه فحق له أن يضحك أم سخط عليه فالبكاء به أولي والصرخ بمثابة أليق ؟ يا الله... يا رب العالمين ، ما أشد غفلتنا وما أعظم المصير الذي ينتظرنا ، إن حالنا والله هو حال النملة التي حدث عنها بشر الحافي فقال (إن في هذه الدار نملة ، تجمع الحب في الصيف لتأكله في الشتاء ، فلما كان يوم أخذت حبة في فمها ، فجاء عصفور فأخذها والحبة ، فلا أكلت ما جمعت ، ولا ما أملت نالت) .

فهل وعيت المثل أخوي وأنت اللبيب ؟ وهل التقطت الإشارة وأنت المؤمن الفطن الذي له في كل شيء أية تدل علي رجاحة عقله وعظيم فطنته ؟ إن هذه النملة هي أنا وأنت ، وكثير من أمثالنا ، نرتع في طلب الدنيا بحرص الثعلب وشراسة الذئب ، ونجمع في دئب وجد ، دون كلل أو ملل ثم ... ثم ماذا ؟ ثم يأتي الموت ، فلا يأكل المسكين منا ما جمعه ، ولا يدرك ما طلب ، بل وجد الله عنده فوفاه حسابه .

أخي هل تذكر الحسن البصري ؟ هل تذكر مجالس وعظه ؟ إنها المجالس التي لا تختلف عن رياض الجنة ، تسرح فيها النفوس ، وتحن إليها القلوب ، وتهوي إليها الأفتدة ، حيث الحكمة يرسلها فكأنها خرجت من قلب نبي والموعظة كأنها جرت علي لسان ولي ، وكلامه الذي يحيي القلب ويزجر النفس ،



هذا هو الحسن أخي يعظ بصدق النائحة الثكلي لا المستأجرة ، فإذا وعظه يصرخ فينا وباختصار عجيب ، يلخص قصة الخلق وتاريخ البشر يقول مناديا : يا ابن آدم .. السكين تشحذ ، والتنور تسجر ، والكبش يعتلف ⁽¹⁾ فنحن الكباش أخي والموت هو السكين ، والنار مصير الغافلين ، أفبعد كلام الحسن تليق بنا الغفلة ؟ إن روضة التوبة لا يدخلها غافل ، فالذنب سيجرحك ، والموت سيذبحك ، والموقف بين يدي ربك سيفضحك ، والنار من وراء هذا ستنضحك ، وكل امريء حجيح نفسه .

" اترك الذنب أو ارحل " لافتة معلقة بين شجرتين في روضة التوبة

، وقفت أمامها أقرأ وأتدبر ، فقال صاحب لي يحاورني : اترك

الذنب أو ارحل ، شرط معجز ، فللذنب سلطان ،

وللمعصية أعوان ، فمن ذا يستطيع أن يترك الذنب مع عادة

تقيده ، ونفس تغريه ، وشيطان يعده ويمنيه وهوى يطيح به

ويلقيه ، ودنيا من خمرها تسقيه ؟ قلت : إن العاقل ينظر في المآلات ، ويتدبر العواقب ،

وإني أري لك عقلا فاسمع إلي الإمام السمرقندي يقص عليك ماللذنب من عيوب ،

ثم افعل بعدها ما يليق بك ، وما يجدر بمثلك ، يقول رحمه الله تعالى : " لا تغرنك هذه

الآية : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: 160] فإن السيئة هي الأخرى لها عشر من العيوب :

أولها : أن العبد إذا عمل سيئة فقد أسخط خالقه علي نفسه .

والثاني : أنه بالذنب أسعد أحرص الخلق علي هلاكه ، وهو إبليس عدو الله

وعدوه .

والثالث : أنه بالمعصية يتباعد عن أحسن المواضع وهو الجنة .

والرابع : وأنه يتقرب إلي شر البقاع والمواضع وهو جهنم .

والخامس : أنه جفا أحب شيء إليه وهو نفسه .

والسادس : أنه نجس نفسه بالمعصية ، وقد خلقها الله تعالى طاهرة .

والسابع: أنه آذى أصحابه الذين لا يؤذنه ، وهم الحفظة .

والثامن: أنه أحزن حبيبه محمدا عليه الصلاه والسلام في قبره ، فأعمالنا تعرض عليه .

والناسع: أن الأرض والسماء والزمان والمكان كل ذلك تأذي بالمعصية .

والعاشر: أنه خان الخلق أجمع ، لأنه بمعصيته يمنع القطر أن ينزل من السماء .

يا الله لطفا ، أبعد كل هذا تسأل أيها الحبيب ، والتقي اللبيب : كيف أترك الذنب ؟ بالله عليك أخي : ألم يؤلمك قوله عن الذنب : أنه يؤذي النبي في قبره لأن اعمالنا تعرض عليه ؟ ألم يرق لها قلبك ؟ أترضي أن تكون سببا في هم يدخل علي الحبيب ﷺ قبره ؟ أما يكفيه تطاول أعدائه ، وعناد شائثيه ومبغضيه حتي نضم إليها بجحود وقسوة ذنوب أتباعه وتقصير أشياعه ، حبيبي يا رسول الله عذرا فإن وليك الله وسوف يكفيك ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۚ ﴾ [الزمر: 36] أخي إن كان صعبا أن تترك الذنب ، وأن تهجر بساط المعصية ، فإن ما يترتب علي الذنب أشد وأصعب ، وما يعقبه من الحرمان أدهي وأمر .

الآن أخي أقترح عليك أن تجمع آيات التوبة في موضع واحد ،

وبخط يدك ، ثم اقرأها وأعد قراءتها مرة بعد مرة ، متأملا

زهرها ، ومتنفسا عطرها ، ودع نفسك تنتشي بجلال

سحرها ورحيق خمرها ، أما أنا فهديتي إليك زهرة منها لا

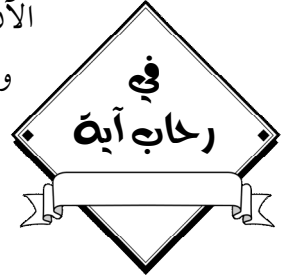
ككل الزهور ، بل هي في روعتها متفردة ، وفي بديع حسنها

واحدة ، فافتح قلبك قبل أذنك ، حتي يستقر عبيرها هناك ، في أعماق القلب ودهاليز

الروح ، فهذا هو مكانها الذي يليق بها ، اقرأ أيها الحبيب دعاء ربك ونداء مولاك :

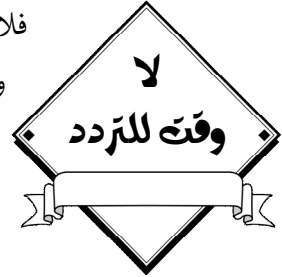
﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: 53] يا الله ! ما هذه الروعة ؟ أعد قراءتها أيها الحبيب وقطع الآية

هكذا : ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ثم توقف ، ثم أكمل : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ثم توقف ، ثم أكمل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ثم توقف ، ثم أكمل : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ثم أجبنني : هل اهتزت روحك ؟ هل انطبعت معانيها في



نفسك ؟ سادع سيدا رحمه الله تعالى يمد لك يد العون بريشته المبدعة ، وقلمه المعبر ، ومعانيه الخلاقة ونفسه التواقة ، وروحه المرفرف يقول سيد : (إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية ، كائنة ما كانت ، وإنها الدعوة للأوبة ، دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال ، دعوتهم إلى الرجاء والأمل والثقة بعفو الله فليس بين الإنسان وقد أسرف علي نفسه ولج في الذنب وأبق عن الحمي وشرذ عن الطريق ، ليس بينه وبين الرحمة الندية الرطبة ، وظلالها السمحة الجميلة ، ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة ، والتوبة وحدها ، الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع ، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان " وأنيبوا إلي ربكم وأسلموا له " ، الإنابة والإسلام والعودة إلى ظلال الطاعة وأفياء الإسلام هذا هو كل شيء ، دون طقوس ولا مراسم ، ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء ، إنه حساب مباشر بين العبد وربّه وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق ، من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب ، ومن أراد الإنابة من الضالين فلينب ، ومن أراد الاستسلام من العصيين فليستسلم ، وليأت وليدخل ، فالباب مفتوح ، والفيء والظل والندى والرخاء كله وراء الباب ، ولا حاجب دونه ولا حسيب ، فهيا هيا قبل فوات الأوان ، هيا فالوقت غير مضمون ، وقد يفصل في الأمر وتغلق الابواب في آية لحظة من لحظات الليل والنهار ⁽¹⁾ .

فلا تتردد أخي، إن الرحمة تنتظرك، والروح والريحان والنور والإيمان، على بعد خطوات منك، ففارق الذنب خطوة، فثم الأُنس والخطوة، وابتعد عن المعصية فثم الراحة، راحة القلب، راحة البدن، راحة الضمير، إن ربك أخصى لا تضره معصية، ولا تنفعه طاعة، وقد نصحك بالتوبة، فلماذا تتردد ؟



ودعاك إلى الدخول إلى حظيرته، فلماذا تتأخر ؟ كم من ناصح لك قد قبلت نصحه بالتوبة ، وهو بالنصيحة غير جدير، حتى هيجت الإمام ابن الجوزي فراح يعاتبك قائلاً : (لو أن طبيباً نصرانيا عافاك عن شرب الماء البارد لأجل مرض من أمراض

الجسم لأطعته في ترك ما نهاك عنه، وأنت تعلم أن الطبيب قد يكذب وقد يصدق، ويصيب ويخطئ وينصح ويغش، فما بالك لا تترك ما نهاك عنه أنصح الناصحين وأصدق القائلين ؟ لأجل مرض القلب الذي إذا لم تشف منه فأنت من أهلك الهالكين ؟ (1) .

أخذك إيها المذنب - وكلنا ذلك الرجل - إذا غلبتك

نفسك، وقهرك شيطانك، وصار الذنب يجري منك مجرى الدم في العروق . وأحاطت بك خطيئتك، فلا أرى لك عن الصوم بديلا، وإذا كان الذنب داءك، فإن الصوم دواؤك، يصد عن الذنب ويقطع الشهوة، ويفطم النفس



عما تألفه، فعليك به، فقد نعته لك حبيبك ﷺ فقال لمن طلب منه النصيحة : عليك بالصوم فإنه لا مثل ، له وفي رواية لا عدل له ويشرح لك ابن قدامة رحمه الله فلسفة الصوم فيقول: (إنه قهر لعدو الله، لأن وسيلة العدو الشهوات بالأكل والشرب ، ما دامت أرض الشهوات مخصبة فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى، وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك) (2). وصدق والله وصدقته التجارب، فإن البطن إذا امتلأت تحركت الشهوة، وثار الغريزة، ووجد الشيطان مسلكا أمنا إلى عقل الإنسان وقلبه ، فتكون الطامة والتجربة خير شاهد، واستمتع بما قصه عليك أحمد ابن الحواري رحمه الله تعالى حيث قال : خرجت مع أبي سليمان الداراني فمررنا على زرع، وإذا طائران يلتقطان الحب، فلما شبعأ أراد الذكر الأنثى، فقال : (يا أحمد انظر فيما كان، لما شبعأ دعت بطنه إلى ما ترى) (3). إنها تجربة عملية، رآها الصالحون، ثم وضعوا لك تلك الحكمة : إذا شبعت المعدة جاعت الجوارح وهاجت الشهوات، فجرب الصوم وعليك بالصبر .

(1) التذكرة في الوعظ ص 36 مصدر سابق .

(2) مختصر منهاج القاصدين ص 43 ط دار التراث .

(3) حلية الأولياء ج 9 ص 268 . مصدر سابق .

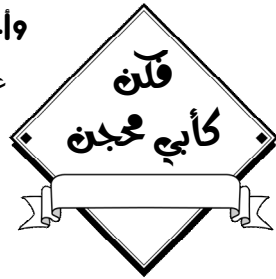
ويؤكد شيخ الإسلام ابن القيم ما مر ويزيد الحقيقة وضوحاً
 فيقول بلسان الناصح وقلب الحريص المشفق : (وللصوم
 تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة
 فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ويعيد
 إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات) (1) .



إن الصوم علاج ناجع، ودواء نافع، وشفاء عاجل، فعليك به ولا تتردد، فالصبر
 والجوع بعض الوقت أهون من الصبر على النار كل الوقت، وأختتم أخى هذا
 المشهد بلوحة من ذهب لابن الجوزى رحمه الله فحفظها فهي جديرة أن تحفظ في
 خزائن القلب وإنسان العين يقول رحمه الله: (لا نقدر على التخلص من بلوى
 المعصية إلا بالتخلص من سجن الغفلة، ولانتخلص من الغفلة إلا بتضمير البطن -
 يعنى الجوع - وتفرغ القلب ومواصلة الذكر، فجع بطنك، وارفض شغلك، واذكر
 ربك يعتزلك شيطانك) (2) .

وأخيراً أخى الحبيب، اسلك درب الصالحين، والزم

غرزهم، وضع القدم مكان القدم، واجعل من هديهم عوناً لك
 على غايتك، واقتد بمن سبقك بإحسان تنل الحسنى عند
 ربك، واترك الذنب كما تركوا، تفتح لك مغاليق
 الأبواب، ويوضع لك القبول فى الأرض فلا تطرق باباً إلا



فتح، ولا تطلب أمراً إلا قضى، نعم أخى الحبيب ، اهجر الذنب الآن وليس غداً، وقل له
 : هذا فراق بينى وبينك، وكن كأبى محجن يوم ترك الخمر لله، حيث تذكر أن ما عند الله
 هو خير، وأن من ترك لله شيئاً عوضه الله تعالى ما هو أبقى، وإليك خبر أبى محجن
 لتعتبر، فأن فيه لذكر ولكن : هل من مدكر ؟

لما خرج المسلمون للقاء الفرس يوم القادسية كان معهم أبو محجن الثقفى، وهو
 رجل ذو خبرة فى القتال ودراية بالنزاع ومع ذلك غلبته نفسه، ونزغ شيطانه فشرب

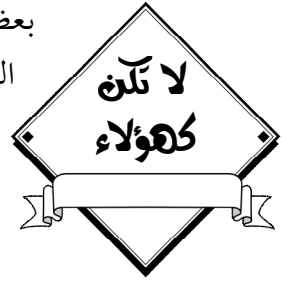
(1) زاد المعاد ج2 ص29 .

(2) التذكرة فى الوعظ ص36 . مصدر سابق .

الخمر وهى أم الخبائث، وأس البلاء وحاملة المرء إلى طينة الخبال ودرك الشقاء، فما كان من سعد عليه السلام إلا أن حبسه فى سجن و جعل القيود فى قدميه والأغلال فى عنقه و يديه، ويوم اللقاء الفاصل أشرفت زوجة سعد على ميدان المعركة، وأحست أن المسلمين فى حاجة إلى جهود هذا الفارس المقيد، فتصرفت بمفردها وحلت قيده، فركب فرسا لسعد، وحمل على الفرس كليث غابات كريمة المنطرة، وأبلى بلاء حسنا، حتى هزم أعداء الله، وعاد أبو محجن بنفسه إلى السجن و وضع القيود فى قدميه والأغلال فى يديه، ورجع سعد فأخبرته زوجته، ووقف سعد على شدة بأسه وعظيم بلائه فقال: والله لا أحبسه فى الخمر أبدا، فما كان من أبى محجن إلا أن رد التحية بخير منها وقال: وأنا والله لا أشرب الخمر بعدها أبدا، وقد كان فتاب البطل توبة نصوحا، وترك خمره فى الدنيا تذهب العقل، طمعا فى خمر الجنة التى تزيد فى العقل، وتشفى الصدر، من أنهار جارية، يفترش المتقون شواطئها، فى جنات ونهر عند ملك مقتدر.

فكن أخى كأبى محجن واهجر الذنب وقل: وداعا أيها الذنب وداعا لا لقاء بعده، يبدل ربك سيئاتك حسنات، ويستر لك الهفوات.

بعض الناس أيها الحبيب، تجده يترك الذنب حياء من الناس، أو عجزاً عن إدراكه، وهذا لا بأس به للمتنزل عن الله، المنقطع عن مولاه، أما أنت أخى فلك شأن آخر لأنك:



من ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: 57]

ومن: ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَغْبًا وَرَهْبًا

وَكَانُوا لَنَا خُشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90]

ومن: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: 16]

وأنت أخى من الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ

غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: 27، 28]

نعم أخى الحبيب أنت من هؤلاء الربانيين لست موسميا فى الطاعة، ولا شيطانيا فى السلوك، ولأجل هذا لا يليق بك أن تكون من هؤلاء:

- ممن ترك الذنب فقط لأجل أنه يؤثر على سمعته بين الناس .
- ممن ترك الذنب فقط لأجل أن يحفظ قوته ويتقى الخبيث من الأمراض .
- ممن ترك السرقة فقط خوفا من الحارس أو فقد المنفذ إلى غايته .
- ممن ترك الذنب فقط لأنه عجز عن الوصول إلى شريك له في الإثم .
- ممن أصر على الذنب فهو يذكره إذا أصبح، ويطلبه إذا أمسى، ولكنه فقط يتركه عجزا عن إدراكه وفقد الأسبابه .

إنها أمثلة تغني عن الحصر، فإياك إياك وهؤلاء، وكن فقط ممن ترك الذنب لله تعالى يرجو رحمته، ويخاف مقامه تل ثناء ربك وجزاء مولاك الذي أثنى على هذا الصنف المبارك وحدد جزاءهم حين قال : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ [الرحمن:46]، وقال كذلك : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴾ [٤٠] فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات:40، 41] . يقول سيد رحمه الله : (والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصيته) ⁽¹⁾ .

أتعرف أخى عاقبة المعصية ؟ أتعرف مصير المذنب المقيم على الذنب لا يرحل ؟ أتدرى حين تجرأت على الذنب على من تجرأت ؟ وفي حق من أخطأت ؟ إن عاقبة الذنب وخيمة، ومصير المصر خزي وألم، وأنت كذلك قد تجرأت على مولاك فأين حرقة الندم وحمرة الخجل ، وأمارات الحياء ؟ إن حبيبك ﷺ يقول : " الندم توبة " ⁽²⁾ فإذا وفقت لترك الذنب فاجتر الندم اجترارا، وأظهر لمولاك تواضعا وانكسارا، وأره منك مذلة وخضوعا وألما وحسرة، واستعرض ذنوبك ذنبا ذنبا، صغيرها والكبير، وأظهر الإشفاق والإطراق، واسمع ما قاله حبيبك ﷺ تعرف قيمة الندم على الذنب ومنزلة التائب إذا أحزنه فعله وآله ذنبه يقول ﷺ : " إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له " ⁽³⁾ . ما تقول أخى في هذا الحديث ؟ إنه يطمئنك، ويدخل الراحة على نفسك، ويفتح أبواب الأمل المشرق أمام عينك



(1) في ظلال القرآن ج6 ص3818 . مصدر سابق.

(2) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده عن ابن مسعود.

(3) أخرجه أبو نعيم في الحلية .

حتى لا تقنط، وقبل أن يغيب عنك معناه إليك أخ له ليثبت في ذهنك، ويرتكز في قلبك يقول ﷺ : لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم " - أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة وإسناده حسن - بلفظ لو أخطئتم ثم قال : ثم تبتم كما في هامش الإحياء جـ 4 صـ 21. أما الصالحون أخى فلله درهم، لقد أدركوا ما للندم من مكان و مقام وما للندام من ثواب وجزاء فراحوا واحدا بعد الآخر يذكرون ويحفزون، فاسمع ما يقوله عبد الله ابن سلام : لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنبا ندم عليه طرفة عين، سقط عنه أسرع من طرفة عين⁽¹⁾، أيعجبك هذا ؟

نعم والله إنه لعجيب، وهذه أخى الحبيب أعجب : يقول حبيب بن ثابت : تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول :

أما إنى كنت منه مشفق فيغفر له⁽²⁾ ، إن الندم طريق القبول، وأول خطوة نحو الوصول ، فاندمل اليوم قبل أن تبحث عن الندم فلا تجده، ولعلك تسأل الآن : لماذا الندم ؟

وعلى أي شيء يكون ؟ فيجيب الصالحون :

- تندم على بعدك عن مولاك لحظة ركوبك الذنب وسقوطك في الإثم
- تندم على مطاوعة الشيطان وخضوعك له وإسراعك في مرضاته .
- تندم على بعد الملائكة عنك ونفورهم منك حال ملابسة الذنب .
- تندم على ما ضاع من عمرك في معصية ربك .
تندم على كل ذلك، واحمد ربك الذى منحك فسحة الأمل لتستدرك ما بدر منك، وتغسل بالدمع ما كان فى زمن الغواية والهوى، واسمع شيخك ابن الجوزى رحمه الله وهو يهتف بك : (ويحك ، اغسل العثرة بالعبرة، وادفع الحوبة - الإثم - بالتوبة، ما دام فى الوقت مهلة، وفى زمن السلامة فسحة، قبل أن ترى أن السمع والبصر قد كلا، وتقول : " رب ارجعون " فيقال " كلا"، قبل أن يكون دمع الأسى من جفن الأسى منهلا ويقال: هلا كان هذا قبل هذا هلا) .

(1) إحياء علوم الدين جـ 3 . صـ 23 . الإمام الغزالي .

(2) المواعظ والمجالس . صـ 181 . مصدر سابق .

ثم اسكب أخى ماء عينك، وليكن منبعه الفؤاد، ومصبه في الجفون
وعلى الخدود، واغسل به ما لوثته الذنوب، وأرسل الدمع
مدرارا يطفىء ببرده نيران الخطايا وينزل على الجراح بردا
وسلاما، ليعيد البكاء من خشية الله تعالى إلى القلب ما فارقه
من الأمن في ظلال الطاعة، وما فاته من السكينة والأنس في



رحاب المولى عز وجل، فابك على خطيئتك، فلعل دمعة تحلق بك إلى العلى والدرجات
بعدما نزلت بك الذنوب إلى الحضيض والدركات، ابك على ذنبك لعل البكاء اليوم يرد
عنك لهب النيران غدا، نعم أخى ابك لتصبح من أهل هذه البشارة يقول حبيبك ﷺ :
"عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل
الله"، وصدق الحبيب حين يقول لكننا أخى لظروف نعرفها فانتنا الحراسة في سبيل الله
فلا سيف نحمله، ولا رباط نحمله ولا خيل نعدّها فإن لاحت لنا نجاة ففى دمعة ندم
على ذنب مضى أو خفقة قلب من خشية الله، فإن فانتنا الحراسة فلا يجوز أن تفوتنا
الأخرى فإنها والله غالية، لا تشتري بهال، ولا تنال بجاه وإنما هى عطاء الله لمن
يشاء، يقول ابن عمر مبينا منزلة هذه الدمعة التى لا نقدرها حق قدرها : لأن أدمع دمعة
من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار، فرحم الله العبد الصالح الورع
الزاهد العالم الفقيه ابن عمر، لقد أدرك قيمة الدمعة وفضلها فأخلص ونصح، ونحن
اليوم مساكين فلا درهم نتصدق به ولا دينار، أفلا نتصدق بدمعة نعتق بها
رقبة، ونتجاوز بها عقبة ونقطع بها المفازات في سيرنا إلى الله تعالى والجنة ؟

وليس أعجب من قول ابن عمر سوى فعل محمد بن المنكدر رحمه
الله تعالى، فقد كان إذا أسعفه قلبه بدمعة، وفاضت عينه
بقطرة، وجرى العطر الحلال من بين جفونه، يمسح ببائها
وجهه ولحيته ويقول : بلغنى أن النار لا تأكل موضعا مسته
الدموع ⁽¹⁾، ويا الله ما أروع، وما أحلى منطقته لقد رقت



قلوب القوم فجرت دموعهم، وقست قلوبنا - وإلى الله المشتكى - فقحطت أجفاننا ، فابك أخي أو تباكى، كما كان يفعل الصالحون حتى تغرق الذنوب ببحر الدموع، فتأتى العبرة على العثرة، وتمحوا التوبة الحوبة، فإنه لا خير فى عين لا يفيض ماؤها ولا تجرى دموعها وخاصة حين تكون عيني أو عينك فأنت بنفسك أعلم وبعثرتها أدرى، وانظر ما يقوله ثابت البناني رحمه الله، تابعى جليل اشتكى عينه، فقال له الطبيب : اضمن لى خصلة تبرأ عينك، فقال ثابت : وماهى ؟ فقال الطبيب : لاتبك، فقال ثابت : وما خير فى عين لا تبكى ؟ ⁽¹⁾ ومن أجل هذا بكى الصالحون حتى ذهب البكاء بعيونهم، بكوا ندما، وبكوا خوفاً، وبكوا شوقاً فهم فى كل أحوالهم يبكون، ويطلبون بالدمع رضا رب قريب، ويبتغون بالندم حرق ذنوب لا يعلمها إلا الله، جاء فى تاريخ بغداد عن الحسن بن عرفة العبدى قال : رأيت يزيد بن هارون بواسط وهو من أحسن الناس عينين، ثم رأيت بعين واحدة، ثم رأيت وقد ذهبت عيناه، فقلت له : يا أبا خالد ما فعلت العينان الجميلتان ؟ قال : ذهب بهما بكاء الأسحار، ⁽²⁾ . ذهب البكاء فى السحر بعينيه، ونحن لا نبكى، وإذا بكينا فلدنيا رحلت أو جاه سقط، أو مال قل، أو ولد قبض، هذا ما يبكىنا اليوم ، أما بكاء الصالحين فكان فقط على ذنب فرط، أو معصية وقعت، أو خوفاً من النار، أو شوقاً الى الجنة ، وكل يغنى على ليله .

إن البكاء على الذنب يغسل الذنب ، واسمع ما قاله مالك بن دينار رحمه الله : البكاء على الخطيئة يحط الخطيئة كما تحط الريح الورق اليابس، فإذا كانت خطيئتك قد تمددت، وطالت فروعها وأورقت، فاجعل بكاءك فى الأسحار ريحاً تدمر الأوزار وتحط الأغلال، وتضع عنك الأصار . واسمع إلى يزيد الرقاشي وهو يحفزك ويحثك ويستشير دمعك قائلاً : بلغنى أنه من بكى على ذنب من ذنوبه نسى حافظه ذلك الذنب ⁽³⁾ . فابك أخي رب دمة يذهل بها الحفظة عن ذنبك، وينسون عيبك، ويبقى أمرك بعدها بين يدي ربك ، وربك سبحانه لطيف لما يشاء .

(1) حلية الأولياء . ج2 ص 323 .

(2) تاريخ بغداد : ج14 ص 341 .

(3) ذم الهوى . ص 178 ابن الجوزي .

إن الندم وحسرتة، والخضوع وكسرتة هو وقود التوبة وخطبها.
وعلى مقدار الندم وشدته يكون الصدق في التوبة والعزم
في الإنابة، فاجعل من " والمستغفرين بالأسحار "
حاديا لك في سيرك إلى العزيز الغفار، فإن مجانيق
الليل، وسهام الأسحار لا تخطيء الإصابة، ولا تفارقها
الإجابة، فإذا رزقت اليوم عينا جارية فالجزء غدا عين

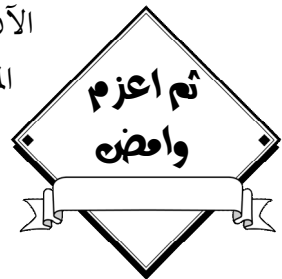


جارية في الجنة، بفضل صاحب الفضل والمنة، واسمع الى شيخ
الإسلام ابن الجوزي وهو يثير فيك كوامن الشوق لتكون في الليل من التوابين، وفي
الأسحار من المستغفرين، وعند غفلات الناس من الأوابين، يقول رحمه الله : (أما
تشتاق أن تكون من قوم طالما أطالوا القيام بالليل، وتجرى دموعهم جرى السيل، تستبق
في صحراء الحدود كالخيل، وإنما يكال للعبد على قدر الليل، فإذا دخلوا الجنة فلكل عين
جارية . ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: 12] .

فقم أخي المذنب في جوف الليل، وناد ربك في ظلمة السحر، وارفع صوتك واهتف
مع عبد كثرت خطاياه وأثقلته ذنوبه فقام ينادى :

يارب إن ذنوبى اليوم قد كثرت فما أطيق لها حصرا ولا عددا .
وليس لى بعذاب النار من قبل ولا أطيق لها صبرا ولا جلدا .
فانظر إلهي إلى ذلى ومسكنتى ولا تذقنى حرا للبحيم غدا .

الآن أخى بعد أن تركت الذنب وراء ظهرك، وودعت أيام
المعاصي ولياليها وداعا لا لقاء بعده، فقد آن لك أن تجعل منها
ومن ذكرها المؤلمة وقودا يدفعك بعيدا إلى أفق
الصالحين، وأن تجعل من حرارة الدمع وحسرة الندم زادا
يبلغك رياض المتقين ، فإذا رزقت هذا العزم فاعلم أنك على



الطريق تمضي ، وفوق الدرب تسير ، ونحو الغاية تخطو بقدم واثقة ، فالوصول بإذن الله
قريب ، فهنيئا لك من قبل وهنيئا لك من بعد ، ولم يبق لك أخي الحبيب إلا أن تشحذ
همتك وتستحضر إرادتك وتجمع همك وتستجمع عزمك، ثم انظر إلى غدك نظرة

أمل، سائلا مولاك أن يحفظك من شر نفسك ووسوسة شيطانك ، وأن يكون الغد نقيا
 كأمواج البحر لا تلوثه خطيئة ولا تعكر صفوه معصية، وهذا العزم أخي يحتاج إلى همّة
 عالية، وعقل يقظ ونفس تواقّة، ورغبة أكيدة في طي صفحة السيئات وبسط صفحة
 الحسنات، والسعي الجاد لطلب الدرجات، من أجل أن يرضى عنك مولاك وأن تسعد
 بصحبة نبيك ومصطفاك ﷺ حيث الفردوس الأعلى مسكنك، وعرش الرحمن ظلتك،
 وأبو بكر وعمر جيرانك، وأئمة الهدى إخوانك، والخور الحسان زوجاتك ، والولدان
 خدامك، فيأيك أن تبع هذا كله بثمان بخس، وتلتفت إلى الخلف، أو تنقلب على
 عقبيك، فإنه لا يليق بك بعد أن اتخذت لك مكانا بين الصالحين، وبدأت السير في
 رحاب أهل التقى .

أخي الحبيب : إن العزم عقد وعهد بينك وبين ربك، فإذا عقدت عقدا، أو
 عاهدت عهدا، فأوف بعهدك، واجعل مادة العقد أن تودع المعصية وأهلها، وأن تفارق
 أسبابها وتهجر أرضها، فإنها أرض سوء ، إلى أرض يسكنها أهل الله وخاصته، أهل
 طاعته ورضوانه، فإنهم قوم يعبدون الله ولا ينقطعون، ويسبحونه لا يفترون، ثم أشهد
 ربك على هذا العقد، وأره من نفسك الوفاء والصدق ، وقل : يا مولاي إني نادم على
 عمري الضائع، ولبالي الخوالي وعازم على ضدها، فإذا صدقت مع ربك صدق معك
 وأعانك، وحفظك وعصمك، فمدار الأمر أخي وقرة عيني، على العزم أولا، والصدق
 ثانيا وتأمل حال الصالحين حين يعزمون كيف يصدقون، مر مالك بن دينار بالسوق
 فرأى تينا فتاقت نفسه إليه ولم يكن يملك ثمنه، فطلب من البائع أن يؤخره فرفض ،
 فعرض على البائع أن يرهن حذائه، فرفض ثانية، فانصرف مالك دون أن
 يشتري، وأقبل الناس على البائع وأخبروه أن المشتري ذاك هو مالك بن دينار الإمام
 الورع والتقّي النقي، فاستحى البائع أن يرد إماما يعلم الناس الخير، فبعث عربة التين
 كلها مع غلام له وقال : إن قبلها منك فأنت حر لوجه الله، فأسرع الغلام بالعربة ممّنيا
 نفسه بالحرية حيث لم يتصور أن أحدا يمكن أن يرد مثل هذا العطاء، فلما دخل الغلام
 على الإمام قص عليه الخبر ودفع إليه العربة بما عليها، فقال له مالك : قل لسيدك إن
 مالك لا يأكل التين بالدين، وإن مالك حرم على نفسه التين إلى يوم الدين . وهنا

أسقط في يد الغلام وأخذ يتوسل لملك قائلا : يا سيدى خذها فإن فيها عتقى ويرد عليه مالك : وإن فيها رقى .

أرأيت أيها الحبيب هذا العزم ؟ إنه عزم الرجال، تزول الجبال ولا يزول، وتتبدل السموات والأرض ولا يتبدل، به يذوب الشيطان ويخنس، وتجف بحار الخطيئة، ويفر الذنب مدحورا مهزوما، لقد رأى مالك أن شهوته أذلته وأن بطنه أهانته، وهذا في شيء حلال أقبلت نفسه عليه، ومالت مجرد الميل إليه، فما كان منه إلا أن نوى الفراق وعزم عزم الرجال على الطلاق، فحرم أكل التين لا يوما أو يومين ولا شهرا أو شهرين بل إلى يوم الدين فله عزم الصالحين.

أخي الحبيب : إن الذنب لا يليق بك، فإنه يحط من شأنك ويزرى بك، به يغضب ربك ويفرح شيطانك، ويحزن إخوانك، ويتأخر النصر عن دعوتك وأمتك، وقد جعل الله لك في الحلال متسعا، وفي الطيب المباح خصبا ومرتعا، أفتعجز بعدها أن ترعى في الحلال وتنأى بنفسك وجوارحك عن الحرام ؟

نحن أخي الحبيب لسنا ملائكة، ولسنا كذلك شياطين، وإنما نحن خلق وسط بينهما من تراب وطين، فينا أشواق الصعود وصلاحيات النهوض التي تحملنا إلى آفاق الملائكة، وفينا كذلك وسوس السقوط وأسباب الهبوط إلى حمأ الطين ودرك الشياطين، ومن ثم فحقك أن تقول :



إنى أتوب مخلصا وأرجع نادما، وأعزم صادقا ورغم كل هذا لا ألبث أن أعود، نعم من حقك أخي أن تقول : إنى أستقيم على الصراط حيناً وأجاهد النفس صابرا، وأقاوم الشيطان متجلدا، ثم لا ألبس تحت ضغط الهوى، وشهوة النفس وشرك الشيطان أن أنحرف . نعم أخي من حقك أن تقول : إنى أجتهد وأجاهد وأصبر وأصابر فأترك الذنب دهرا ثم لا ألبث حتى أعود إليه قهرا، فلتن قلت ذلك فمن حقي أيضا أن أقول : كلنا يا أخي، ذلك الرجل وإنها والله الحرب الدائرة بيننا وبين أعدائنا، إبليس والدنيا والنفس والهوى، إنها معركة دائمة ودائمة والأيام دول، ينتصر العدو مرة وننتصر نحن مرة، والنكته هنا أن النصر للمؤمنين، والعاقبة للمتقين مولانا

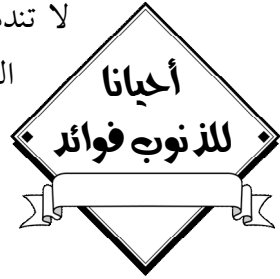
جل في علاه يقول : ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: 173] وللإمام الغزالي رحمه الله كلام تقر به النفوس الفلقة، ويسكن إليه خفاق بين الضلوع لا يكاد يحدث توبة إلا ويستقبل ذنبا يقول رحمه الله : (فإن ثبت ثم نقضت التوبة وعدت إلى الذنب ثانيا، فعد إلى التوبة مبادراً، وقل لنفسك لعل أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة، وكذلك ثالثاً ورابعاً، وكما اتخذت الذنب والعودة إليه حرفة فاتخذ التوبة والعودة إليها حرفة . فلا تكن في التوبة أعجز منك في الذنب، ولا تيأس، ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك فإنه دلالة الخير).

ما أجمل هذا الكلام !!!!! وما أروع، وما أصدق وأعمق رؤيته ونظريته، تأمل أخي قوله : وكما اتخذت الذنب والعودة إليه حرفة، فاتخذ التوبة والعودة إليها حرفة . اجعل هذا الكلام في مركز تفكيرك وبؤرة شعورك، واجعل التوبة حرفة في خلوتك و جلوتك، في إقبالك وإدبارك، في سواد ليلك وبياض نهارك، واحذر أن تغفل عنها، وتعلم الاستغفار، فإنه يطهر الأجواء، ويغسل الأدران، وينظف ما لوثته الذنوب، يقول سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى في قول الله عز وجل : ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾ [الإسراء: 25] يقول : نزلت في الرجل بذنب ثم يتوب ويذنب ثم يتوب (1) . ويقول طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين وامسوا تائبين (2) .

وتأمل أخي كذلك قول الإمام الغزالي : ولا تيأس، ولا يمنعك الشيطان من التوبة . وهذا غاية في اللطف، فتأمله وتدبره، وذلك إن أحدنا إذا أسرف على نفسه، نفث الشيطان في روعه إنه لا توبة لك فقد فعلت وفعلت، وعصيت فأسرفت، فإن تبت لن يقبل منك ، ومراد إبليس أن تيأس من روح الله، وتقنط من رحمته، فإياك أن تنصت لوسوسته وأن تستسلم لنفته وهزمه، مهما كان منك، فباب ربك مفتوح لا يغلق، ورحمته سابقة وسابغة، أفتظن أيها الغر أنها تضيق بك مهما كان منك ؟ أخي الحبيب إن الله عز وجل لما لعن إبليس، سأل إبليس النظرة، فأنظره إلى يو القيامة، فقال : وعزتك لا

خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا حجت عنهم التوبة ما دامت الروح فيهم، وفي رواية : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني (1) .

لا تندعش أيها الحبيب ولا تتعجب للذنوب فعلا فوائد ، فإن الذنب إذا وقع منك فقد صادف أهله ، وإن قبل مولاك توبتك فهو أهل التقوى وأهل المغفرة ، فقد قدر الله عليك الذنب - وعلى بني جنسك - وجعل في الذنب، كما يقول ابن رجب - فائدتين عظيمتين :



الأولى : اعتراف المذنبين بذنوبهم، وبتقصيرهم في حق مولاهم، وتنكيث رؤوس عجبهم، وهذا أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات، وإن كثير الطاعات يوجب لصاحبه العجب كما قال الحسن رضي الله عنه : لو أن ابن آدم كلما قال أصاب، وكلما عمل أحسن أو شك أن يجن من العجب، وهذا معنى عميق ودقيق أخي، فذنب تفتقر به وتنكسر بسببه خير من طاعة تذلل بها وتثني عطفك تيتها وغرورها بسببها، وأتينا المذنبين أحب إلى الله - كما في حكم ابن عطاء الله - من زجل المسيحين، فأتينا المذنبين زانه الفقر والذل والانكسار وزجل المسيحين شانه العجب والافتخار.

الثانية : حصول المغفرة والعفو من الله تعالى، فإنه سبحانه يحب أن يغفر، ومن أسأته الحسنى الغفار والعفو والتواب، فلو عصم عباده من الذنب فعلى من يتوب وعمن يعفو، ولمن يغفر ؟

قال أبو الجلاء : دعا رجل من العابدين ربه فقال : اللهم أصلحني صلاحاً لا فساد بعده، فأوحى الله إليه : إن عبادي المؤمنين كلهم يسألوني مثل ما سألت، فإن أصلحت عبادي كلهم فعلى من أتفضل وعلى من أجود بمغفرتي ؟ (2) وكان بعض السلف يقول : لو أعلم أحب الأعمال إلى الله لجاهدت نفسي فيها . فرأى في منامه قائلاً يقول : إنك

(1) نفس المصدر .

(2) لطائف المعارف ص 57 ابن رجب .

تريد ما لا يكون، إن الله يحب أن يغفر (1).

فاجتهد أيها الحبيب في التوبة ، وصدق مع مولاك العزم ، ولن يهلك مع سعة عفو الله وسابغ رحمته وعظيم مغفرته إلا هالك ، ونعوذ بالله من الهلاك وأسبابه.

أنت الآن أخي قد وفقك مولاك لتوبة، وأجرى على خديك من بحار الندم دمة، ورزقك من العزم والإرادة ما يبلغ بك الغاية ، ويقطع بك الطريق حتى النهاية، ومع كل ذلك تبقى في حاجة ماسة إلى ما يعينك على الثبات، ويحملك على المداومة، وهو ما سأذكرك به الآن قبل أن يدركنا الوقت



ونغادر هذه الروضة المباركة إلى غيرها، فإليك هذه الكنوز ، ضمها إلى صدرك وافتح لها قلبك، وعض عليها بالنواجذ، **فهني لك خير صاحب وعلى الحق خير معين :**

فعليك به فلن يهلك مع الاستغفار إلا هالك، يقول مولاك عز

وجل ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا

اللَّهَ فَأَسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ

يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 135].



يقول ابن مسعود رضي الله عنه : هذه الآية خير لأهل الذنوب من الدنيا

وما فيها، ووالله إنها لكذلك ، وإن ابن أم عبد لصادق ما كذب فيما قال وما بلغ وقيل للحسن : أما يستحي أحد من ربه، يستغفر من ذنوبه ثم يعود ثم يستغفر ثم يعود ؟ فقال : ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملوا من الاستغفار . فإياك أن تضع سلاحك، وترفع الراية البيضاء وتستسلم للشيطان، وإياك أن تقعد عن الاستغفار .

إن صحبة اللثيم تعدي، فاحذر مخالطة الأشرار، وتذكر حامل المسك ونافخ الكبر، وتخير من تجالس، فصاحبك صاحبك لا محالة، إما

إلا فوزك وإما إلى حتفك ، ولك في خبر الذي قتل مائة نفس ما يدللك على تأثير أهل الشر فيمن يخالطهم، فقد دله العالم على



أرض أخرى، فيها للحق جنود، وللخير رجال، وعلى الطاعة أعوان، ليعيش بينهم بعيدا عن أرضه فإنها أرض سوء، وعن قومه فإنهم أهل فساد وفجور.

ولا غناء لك عنهم، فهم وحدهم يذكرونك إذا نسيت و يعينوك

إذا ذكرت، وينهضون بك إذا قعدت، ويحلّقون بك بعيدا في

أفاق الطاعة حين يضعف جناحك عن حملك، وقرأ

أخي خطاب الصالحين إليك، يعتبون عليك أن هجرت

أهل الخير : (فيا من أبعدته عنهم الذنوب وأخرجته من بينهم

العيوب، إن لم يكن وصل فمواصلة، وإن لم يكن جميل فمجاملة،

تشبه بهم إن لم تكن منهم، فإنه لما أحيا الله عزيزا أحيا معه حمارة، ولما بعث أهل الكهف

بعث معهم كلهم) ⁽¹⁾ وتلك أخي بركة أهل الصلاح وكرامة أهل التقوى ، فهم

القوم لا يشقى لهم جليس.

وتلك أخي وصية حبيبك ﷺ فإذا أحدثت سيئة، فأحدث لها

توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية، فأتبع الذنب

بتوبة واغسل العثرة بعبرة، واتبع سبيل المضادة،

وعالج المرض بضده، والسيئة بضرتها، فعالج سماع

الألحان بالاستماع للقرآن، وعالج النظر إلى الحرام

بالنظر في آيات ذي الفضل والإنعام، وعالج

الخوض في أحوال الذنوب بالسعي في طاعة علام الغيوب،

وهكذا تكون أخي، وأتبع السيئة الحسنة تمحها فإن الحسنات يذهبن السيئات .

وأخيرا أخي نصيحتي لك ووصيتي إليك : علق رجاءك

بأستار عفوه فهو العفو و تطلع بقلبك إلى سعة رحمته،

وخض بقدميك في لجة لطفه، فهو اللطيف، وتأمل

معى هذا الحوار الذى يفيض رحمته ويذوب لطفًا بين



العبد والرب حيث ذكر ابن الجوزي في المواعظ والمجالس⁽¹⁾ أن الحسن بن شمعون قال : إذا قال العبد : إلهي عصيت . يقول الله تعالى : عبدى وأنا رأيت . فإذا قال العبد : إلهي بالفضول نطقت . يقول الله عز وجل : عبدى وأنا سمعت . فإذا قال العبد : إلهي إلى الحرام نظرت . يقول الله تعالى : عبدى وأنا شهدت . فإذا قال العبد : إلهي ندمت . يقول الله عز وجل : عبدى وأنا علمت . فإذا قال العبد : إلهي أسرفت . يقول الله عز وجل : عبدى وأنا عفوت . فإذا قال العبد : إلهي تبت . يقول الله عز وجل : عبدى وأنا قبلت .

فأقبل أخى على ربك معترفاً بذنبك ، وباك على خطيئتك، فان ربك يحب أنين المذنبين، وتضرع المخبئين، وهمس المستغفرين، فأره من نفسك خيراً، يفتح لك من أبواب الفضل ما لا يعلمه إلا هو، ويرد عنك شر كل ذى شر هو آخذ بناصيته، ويدفع عنك حر عذابه يوم يبعث عباده .

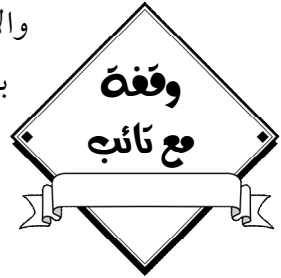
والآن أخى هل تقبل دعوتي هذه للقاء أحد التائبين في وقفة لا

بد منها ؟ إن رؤية التائبين ترقق القلوب، وتهذب النفس، والله

در عمر ما كان أصدقه وأحكمه يوم قال : جالسوا التوابين

فإنهم أرق أفئدة" (2) وصاحبنا الآن أخى هو عتبة

الغلام، رجل من الصالحين وعلم من أعلام الزهد، وإمام من



أئمة التقى، والغلام لقبه، فقد كان يخف إلى الطاعة ويسارع في الخيرات وينشط في

العبادة نشاط الغلمان في اللعب، فلعب بالغلام، وقد بدأ حياته في غفلة حتى اشتهر بين

أهل الفسق، وذاع صيته في نوادي الخمر و النساء، فلما أذن له ربه أن يرى النور بعد

الظلمة، وأن يلمح الفجر بعد العتمة، مر على مجلس للحسن البصري وهو يعظ الناس

في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

[الحديد:16] فوعظ الشيخ في تفسيرها وعظاً رقيقاً بليغاً، وجلت له القلوب، وفاضت

بسببه العيون، فقام عتبة من بينهم فقال : يا تقي المؤمنين : أيقبل الله تعالى فاجراً مثلي إذا

(1) ص 97 .

(2) الإحياء جـ 4 ص 23 . مصدر سابق .

تاب ؟ فقال الشيخ : نعم يقبل الله توبتك، ويقل عثرتك ويرفع عنك إصرك، ويضع عنك وزرك، فلما سمع عتبة هذا الكلام، اصفر لونه، وارتعدت فرائضه، وصاح صيحة، وخر مغشيا عليه، فلما أفاق دنا منه الحسن وقال له هذه الأبيات :

أيا شابا لرب الأرض عاصي	أتدري ما جزاء ذوي المعاصي ؟
سعير للعصاة لها زفير	وغيظ يوم يؤخذ بالنواصي
فإن تصبر على النيران فاعصه	وإلا كن من العصيان قاصي
وفيم ؟ وقد كسبت من الخطايا	وهنت النفس فاجهد في الخلاص

فصاح صيحة غلبته، فخر مغشيا عليه، فلما أفاق قال للشيخ : هل يقبل الرب الرحيم توبة العبد اللئيم ؟ فقال الشيخ : وهل يقبل توبة العبد الجافي إلا الرب المعافي ؟ . فرفع عتبة يده ودعا بثلاث دعوات فقال : إلهي إن كنت قبلت توبتي وغفرت ذنوبي فأكرمني بالحفظ والفهم حتى أحفظ كل ما سمعت من القرآن والعلم ، إلهي أكرمني بحسن الصوت حتى إن كل من سمع قراءتي يزداد رقة في قلبه إن كان قاسي القلب، إلهي أكرمني بالرزق الحلال وارزقني من حيث لا أحتسب . فلما علم الله تعالى صدق عزمه وصحة توبته، استجاب جميع دعائه، فزاد فهمه وحفظه، وكان إذا قرأ القرآن تاب كل من سمع قراءته، وكان يعود إلى بيته فيجد قصعة من المرق ورغيفين لا يدري من أين أتت ، وظل على هذه الحال حتى فارق الدنيا ⁽¹⁾.

ونترك عتبة في رياض التوبة يتقلب، لنسأل قبل أن نغادر : لماذا نتوب ؟، ونقلب الطرف فإذا الجواب ظاهر حولنا على ورق الأشجار وجذوع النخل فرحنا نقراً :

- نتوب لأن الله تعالى أمر الجميع بالتوبة، الرجال والنساء ، الشباب والشيوخ، الصالح والطالح، الحر

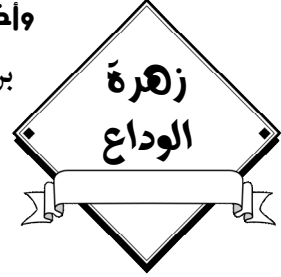
والعبد، ولم يستثن أحدا فقال : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 31] .



- نتوب لأن حق مولانا عظيم، ونعمه جلية، ونحن ضعاف عن ذكرها، عاجزون عن شكرها، وبالتوبة يجبر الله تعالى الكسور ويعفو عن التقصير .
- نتوب لنغيظ العدو ونجسأ اللئيم، ونجنس الشيطان، فإن العبد يذنب الذنب فيندم عليه حتى يدخل به الجنة، فيزداد حقد اللعين وغيظه، فيقول : ليتني لم أوقعه في الذنب .
- نتوب لأن التوبة رسول الخير، تزيل الهم وتطرد الغم، وتدفع النقم، وتسهل الصعب، وتوسع الرزق وتملأ النفس سكينة والقلب حياة، وتفيض على الروح رضا وطمأنينة .
- نتوب لأن الناس قسمان : تائب وظالم ولا ثالث لهما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: 11] .
- فتب الآن أخي الحبيب، وحلق في رياض التائبين، فلا يليق بمثلك أن يكون أبدا مع الظالمين .
- نتوب لأن الميزان سينصب والأعمال ستعرض، والعدل سيقام، ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: 47] ولن يستقيم لك ميزان إلا بتوبة، تجب السيئات، وتمحو الزلات، وترفع الدرجات، ويستقيم بها الميزان .
- نتوب لأن التائب حبيب الرحمن ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: 222] إنه سبحانه يحب التوابين فتب تكن منهم، ويجب المتطهرين فتطهر من الذنب تكن منهم، لتضع الملائكة على صدرك وسام الحب، حين يشيرون إليك بالبنان، ويهتفون باللسان : هذا حبيب الرحمن .
- وأخيرا أخي نتوب ليفرح الرب، وتسعد الملائكة، ويغتاز العدو، ونجسأ الشيطان، ونجنس حربه وأعوانه، فالمولى الكريم يفرح بتوبة عبده، فتب يفرح ربك، ويسعد بك نبيك، وتبيض صحيفتك، وتعلو درجتك، وتهنأ بالعيش في روضات الجنات، بصحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

واخيرا وقبل الوداع، يحلو لي أخي أن أتركك تعيش مع الفضيل

بن عياض في هذا الخبر الذي يفيض رقة ويقطر عذوبة، ويوضح فضل المولى على عباده، وكرم الخالق سبحانه على خلقه وأخص بالذكر العصاة والمذنبين يقول الفضيل رحمه الله : ما من ليلة اختلط ظلامها، وأرخبى الليل سربال سترها



إلا نادى الجليل جل جلاله : من أعظم مني جودا ؟ والخلائق لي عاصون وأنا لهم مراقب، أكلؤهم في مضاجعهم، وكانهم لم يعصون، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم، أجود بالفضل على العاصي، وأفضل على المسيء، من ذا الذي دعاني فلم ألبه ؟ أمن ذا الذي سألتني فلم أعطه ؟ أمن ذا الذي أناخ ببابي فنحيته ؟ أنا الفضل ومني الفضل، أنا الجود ومني الجود، أنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أني أغفر للعاصين بعد المعاصي، ومن كرمي أني أعطي العبد ما سألتني، وأعطيته ما لم يسألني، ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني فأين عني يهرب الخلائق ؟ وأين عن بابي يتنحى العاصون ؟ .

الله أكبر أسمعت أخي هذا الكلام ؟ ألم يخشع له قلبك ؟ ألم تستكن له نفسك ؟ والله إن الحجر ليزوب حياء من الخلاق العليم والمنعم الكريم حين يسمع هذا الكلام . فيا غافلا في بطالته، لا يفيق من سكرته، أين ندمك على ذنوبك ؟ و أين بكاؤك على عيوبك ؟ إلى متى تؤذي بالذنب نفسك، وتضيع يومك كما أضعت أمسك ؟ لا مع الصادقين لك قدم، ولا مع التائبين لك ندم ؟ هلا بسطت في الدجى يدا سائلة، وأجريت في السحر دموعا سائلة ؟ .

أخي نحن الآن على باب الروضة نوشك أن نفادر، فجاءنا صوت ملائكة من خلفنا يهتف :

كريم إذا يمت بالصدق بابه فإنك لا تلقى على الباب حاجبا
وإن كنت ذا ذنب فتب منه واعتذر كأنك لم تذنّب إذا جئت تابئا

فلما سمعناه طربنا وانتشيننا وتواعدنا على مواصلة الرحلة فكانت الروضة التي تليها.